نقولا زياده رحل على رأس المئة!

هياكل التاريخ تظلُّ ماثلة في أمكنة الزمان... هياكل الحقبات والمراحل المفصليّة والأوجاع المفصليّة تبقى واقفة لا تهتزّ لحرب فجائيّة ولا تترمّد تحت نيران الأحقاد...

حتّى ولو أسلم هذا الشائب بالتاريخ والطاعن بالأزمنة روحَه الى الله فإنّ هيكله لم تلوِه قنبلة موقوتة ولم تفنه عناقيد غضبيّة. جُلّ ما فعله نقولا زياده أنّه أغفى سنته المئة في هيكله وتسامى في تموّز الى مواسم سماويّة.

بسام برّاك

هذا المجتهد في تواريخ لبنان والأمّة، والمتبحّر في ملح الأحداث ومرورها لم يشأ أن تكون حرب تمّوز المضنية آخر معركة يختبرها عن كثب وبالقلم المجرّد وبالعين الدامعة. هذا المؤلّف المؤلّف للبنان الدائم لم يقوَ على ما شاءهُ فتنهّدت سنواته التسع والتسعون بين أنفاس مَنْ تتقطع أنفاسُهم وأجساد مَنْ تتشظّت أجسادُهم فاعتزم على أن يركب الرحيل ولو بخفر، ولو بصمت، ولو بحذر بين غارة وغارة كي يُكتب فيه لاحقًا مأتمٌ ذو مغزى دلوعٍ بالمفارقات والاستثناءات والغرابة.

هكذا مات نقولا زياده المؤرّخ المفكّر والمسطّر لبنان بيده التاريخيّة. مات خارجَ تاريخه وجغرافيّته ومجلّاته وأبحاثه. مات كمن لفظ كلمة عتب على الوطن قبل أن يُشيّعهُ وطنُه. مات والتاريخ عادَ ورقًا وأحبر رجع دمًا، والأسرار صارت فضائح. في غضب تمّوز وبينما شهرُ الصيف يكتبُ تاريخًا بلغة النار والدمار والانهيار للبنان، اعتكف زياده عن ممارسة الحياة واقتراف المزيد من الحُبّ لأرضه وهُويته وثقافته وقراءاته.

كان مقدّرًا للرجل المئويّ الحامل عصاه الى فوق ونظرته الى البعيد أن يموت في سريره ومن حوله جدرانُ أفكاره ومقارناته التاريخيّة وأجيال حروب اختبرها وجيل أمل تحسّسَ. كان مقدّرًا أن يذهب في النهاية حافظ أسرار التاريخ الى سرّ الحياة الأخير، في رحلة لا رجعة منها الى ها هُنا، لكن لم يكن متوقّعًا أن تغيب عيناه وهو يرى وطنًا يقع مرّة أخرى تحت ركام حرب تمسي مع الأيام صفحة في كتب التاريخ.

نعم بهذه البساطة والوداعة مشى نقولا زياده المعلّم المثقف، والأستاذ الجامعيّ، والقارىء المحلّل بخُطى مئويّة الى حيث يرحل أمثاله، الى حيث تمتلىء الآفاق بوجودهم الجوهريّ وبأسمائهم المعنويّة وبأبعادهم الرمزيّة. ربما لأنه عرف حدود تاريخه هُنا راح يفتّش عن اللاحدود هُنالك. فهو لا يُحبّ التاريخ الملوّث بغنائم الحروب، ولا ذاك المغسول بدماء المعارك. هو يُحبّ لبنان تاريخًا يسير في اتجاه الخلاص من فوز موقت وأرباح لا تأتيه إلا بفائدة المصالح الشخصيّة. هو يُحبّ لبنان المتفلّت من شوائب الماضي والمنطلق نحو جمالات المستقبل. قرأهُ وتمعّن فيه، وتعمّق في جراحه، وعاش خمسينيّاته الأخيرة في ربوعه فأمسى لبنانيّ الهوى والقلم والصفحة والتاريخ. وما ترك نقولا لبنان إلا ليُواريَ تحت ترابه فيبقى يتنشّق علاته كلّها، ونسائمه كلّها، ويبقى يُصغي الى أخباره الفارحة وتلك الترحة... حُبّ نقولا زياده للبنان دفعه الى أن يواصل الكتابة له من تحت الثرى متتبّعًا مراحله الجديدة بعدما غيّب الحروب على أرضه من قبل الاستقلال الى ما بعده. من حروب عالميّة الى حُدوديّة الى داخليّة الى سياسيّة، حتى صار نقولا المعلّم مجموعة رُكامات ونيران وذاكرة شعوب نسج لها بكلماته المؤرّخة عباءة إسمُها الأيّام، وغطى بها صفحات كتبه الخمسين في مجلداته الثلاثة والعشرين.

تسع وتسعون سنة أمضاها زياده زاحفة دومًا، أمضاها يقرأ يكتب يتحدّث يُحاضر يجادل يقترح يُصغي وينتقد. لم يعشها رتيبة ولا واحدة ولا متشابهة. صنع لنفسه فيها عالمًا زمانيًا ذا مدًى تاريخي شاسع في أمكنة تكرّرت وأحاسّته بتعاسة ما فيها حينًا وفرح ما فيها أحيانًا. ولم يشعر مرة أنّه ليس من هؤلاء الناس، من دموع من بكوا على ما جنته أيديهم، ومن عرق من تعبوا ليبنوا وطنًا، ومن فَمّ من اجتهدوا ليحافظوا على تربته وحقوقه واستقلاله في وجه طامعين كثر، ومستعمرين كثر، ومحتلين تكاثروا ويتكاثرون.

فذاكرة زياده المعجونة وطنًا وسلالات وأمجادًا وانكسارات تستمرّ بيننا بعد موته، تسري فيد كالحبر في كتبه، تخبرنا عن حدائق سقاها بمرشّة التاريخيّة، ومواسم قلّب فيها الشوك كي لا تغدرنا أشواك الأيام وكي لا يُجرّح قلبُه المخدوش أساسًا بعشقه الزمان وتوقه الى أزمنة لا تُنسى ولا تُمحى ولا يُتلاعَبُ بها ولا تصبح بكتوبة بيد المنتصر.

ولو قُدّر لزياده أن يجعل عصاه حجرًا لما تأخّر في رمي الحجر بوجه من اغتصبوا التاريخ والتواريخ والأوطان وأبناءها.

هذا الشائب اتكأ على عصاه وكأنّها قلم المحبّر بمئة عام وألف حكاية ومليون إسم وأصل وفصل. اتكأ عليها ومضى بها في زمن انشغلت أيامه عن صاحب الأيام الكثيرة والوفيرة والخيّرة للبنان السلام لا الحرب، للبنان الطبيعة لا الخراب، ولبنان الجمال لا البشاعة والفظاعة والأهوال والآلام...

كان يُحبّ نقولا زياده أن يحيا حتى المئة، وهو قال مرّة لمحبّيه تكرّموني في السادسة والتسعين، أرجو أن تكونوا أحياء تكرّموني على رأس المئة !!

... على رأس المئة توقف رأس زياده عن الدوران في فلك هذه الحياة بعدما دوّخ بفكره ولكتاناته التاريخيّة الورق والكتب ولجالسيه بطرفته ولباقته ودقته وسرده المجنون المهووس بالسنوات والأرقام والأسماء على كثرتها.

... على رأس المئة يقف هيكل نقولا زياده تاريخًا يضمّ أعمدة الأزمنة الماضية واللاحقة، والعهدين القديم والجديد، والديانات وأنبياءها، واللغات وتعدّدها، والحضارات وأصائلها.

أصيل هذا الرجل الواقف على رأس المئة، والماثل في حضرة ضمير هذا الوطن وهذه الأمّة. أصيل لأنّه أحبّ الحقيقة حتى كذّب ما ادّعيَ أنّه حقائق، وأغرم بمخطوطات التاريخ فخطّ فيها من أدبه وأسلوبه ومفرداته أقاصيص تُحكى عمّا قريب وعمّا بعيد لأجيال ستشبّ وتسأل عن أصلها وجذرها وامتدادها وحدودها.

نقولا زياده يكتسب اليوم في الأرض مكانًا لا يساعه، وترابًا لا يوازي حفنته، وجذورًا لا تضاهي جذورَه. يكتسب في الأرض جزءًا صغيرًا منه ومن قيمته وإنجازاته، ويبقى الجزء الكبير عنه في مئة سنة وسنة ومئة صفحة وصفحة ومئة عمر وتاريخ وزمان.. ويبقى جزءه الأكبر مُطلًا برأسه على رأس لبنان.

مسيرته كادت أن تبلغ المئة

المؤرّخ نقولا زياده مواليد العام ١٩٠٧ لأبوين فلسطينيين. أنهى دراسته في دار المعلمين الابتدائيّة في القدس ١٩٢٤ وانضمّ الى سلك التعليم في مراحله المختلفة الثانويّة والجامعيّة حتى مطالع التسعينيّات. مدرس التعليم في الكليّة العربيّة في القدس (١٩٣٩ - ١٩٤٧) وفي جامعة القديس يوسف والجامعة اللبنانيّة وكليّة اللاهوت للشرق الأدنى في بيروت (١٩٧٣ - ١٩٩١).

حاز زياده شهادة الدكتوراه في التاريخ في جامعة لندن ١٩٥٠ وتولّى رئاسة دائرة التاريخ في الجامعة الأميركيّة ١٩٥٨ وعلى مدى خمس عشرة سنة.

أشرف على رسائل الدكتوراه في التاريخ، وكتب مؤلّفات تاريخيّة في سلسلة عناوين ضمن ٢٣ مجلدًا أوّلها: روّاد الشرق العربيّ في العصور الوسطى ١٩٤٣. وكتب بأكثر من لغة علمًا أنّه يتقن إضافة الى العربيّة الإنكليزيّة، الألمانيّة، اليونانيّة، واللاتينيّة.

نقولا زياده مؤرّخ على ثقافة واسعة واطلاع عميق في شؤون السياسة والدين والحضارات والمجتمعات وبحاثة في الشخصيّات والسِيَر والعصور من أقدمها الى أكثرها حداثة.

تميّز بفكره الأدبيّ - التاريخيّ وبحبّه للوطن والأرض والسيادة والحريّة، واعتباره الإنسان مادة أولى للتاريخ والوطن والزمان.

كرّم في لبنان والأردن والناصرة مدينة أجداده، وآخر تكريم لقيه في بيروت بتاريخ ٢٠٠٢/٢/٢١ حين نال جائزة الكاتب جان سالمه لأهل الفكر والقلم.

توفي نقولا زياده على رأس المئة قبل أن يُكمل أيّامه صوبَها في ٢٧ تمّوز ٢٠٠٦ بينما كان لبنان منشغلًا بحرب تمّوز، فرحل صامتًا ليبقى شاهدًا على أنّ التاريخ يصمت ونحن نتحدّث عنه لأجيال وأجيال.

من مؤلّفاته: وثبة العرب (١٩٤٥)، العالم القديم (١٩٤٢)، صور من التاريخ العربي (١٩٤٦)، شخصيّات عربيّة تاريخيّة (١٩٤٦)، صُوَر أوروبيّة (١٩٤٧)، عالم العصور الوسطى في أوروبا (١٩٤٧)، قممٌ من الفكر العربي والإسلامي (١٩٨٧).